جماليات النسق الضدي /شعر ابن زيدون أنموذجاً

م.د. صادق جعفر عبد الحسين
كلية الآداب/جامعة ذي قار

الخلاصة:

حاولنا في هذا البحث أن نقدم قراءة للنص الشعري الأندلسي ، اعتماداً على جماليات النقد الثقافي ، التي تمنح النص الشعري قيمة بالغة ، وتكشف عن تشكيلاته الثقافية ، الجمالية ، ودورها في تأسيس البنية والدلالة.

ولأن القصيدة الأندلسية تحوي في بنيتها العميقة مضمرات نسقية متعلقة بنظرة الشاعر الأندلسي للوجود الإنساني بكلية أضداده ، فإن تأويل هذه الأنساق المضمرة من حيث هي بحث عن ممكنات أفضل للحياة ، يحتاج فهماً عميقاً ، يوضح ماهيتها ، ويحدد دورها.

وتجدر الإشارة إلى أن كشف أنساق الصراع يوسع دائرة الدلالة ، إذ يسمح بفتح دلالات لا متناهية داخل النسق نفسه ، وبناءً على ذلك فإن النص الشعري لابن زيدون ، يمثل ظاهرة نسقية متسمة بالحركة والانفتاح ، فيصبح نقد النص ، والحال هذه ، نقداً للأنساق المرتبة المضمرة في بنيته العميقة.

وقفة في المصطلح والمنهج :

يبني الشاعر من الواقع أحلاماً ، ومن الحقيقة خيالاً ، ومن الآلام آمالاً ، فيبدو كأنه يعيش عالماً غير عالمه وحياة غير حياته. وحين يسعى الناقد إلى تطبيق نظرية نقدية معاصرة على شاعر قديم ، كابن زيدون نجد الشاعر القديم يغدو شاعراً معاصراً بما يقدمه من رؤى ومشكلات وحلول . فالشاعر القديم يرسخ قيماً معينة كما يفعل الشاعر المعاصر. يلعب الشاعر القديم على وتر اللغة ، فيستعمل التشبيهات والاستعارات ... والتضاد.

ويُعنى النقد الثقافي بالقواعد الأساسية لحركة المجتمع ، ولمنافذ التغييرات الفكرية والثقافية والسياسية ، ويعدُّ الإبداع الشعري واحداً من المتغيرات الفاعلة في المجتمع.

وتحاول هذه الدراسة أن تفيد من معطيات الفكر النقدي ما بعد الحداثي بما يسمى الجماليات الثقافية ، ولكن استبعاد بعض الدارسين للقيمة الجمالية في النص واتخاذها مجرد حلية شكلية لإضمار القبيح والسالب في النص لا يمكن أن يستقيم . فالنص يتضمن أنساقاً ناجزة للمعاني ودالة للموضوعات

، لذا فإن تضاد هذه الأنساق ، جمالياً وقبيحاً ، هو الذي يحفز المتلقي على اكتشاف الأبعاد الوظيفية لهذه الأنساق(١).

فالنقد الثقافي سيركز بشكل واضح على التمايز الثقافي بين الطبقات الاجتماعية . إن حال الصراع في المجتمع بين الطبقات الاجتماعية تسهم على وفق منظور التحليل الثقافي في ولادة العديد من المناهج ذات المرجعيات والأشكال المتنوعة.

وانطلاقاً من معطيات هذا المنهج تحاول هذه الدراسة فك مضمرات النسق الشعري لدى ابن زيدون بوصفه واقعة ثقافية تلتقي فيها الذات الإنسانية الواقع الاجتماعي في التجربة الثقافية ، ويلتقي الواقعي المتخيل.

إن عالم ابن زيدون بناء ثقافي متعدد الأنساق الجدلية والثقافية بوصفها آلة مولدة هي تدمير وتنظيم ونمذجة. وقد ذهب فان ديك إلى أن دراسة النص الأدبي بوصفه ظاهرة ثقافية تعدُّ تتويجاً لدراسات سياقية تبدأ بالنص التداولي فالسياقي فالمعرفي ، ثم السياق الاجتماعي النفسي ، وأخيراً السياق الاجتماعي الثقافي ، وربط كل دراسة سياقية بهدف له علاقة بالنص الأدبي تبدأ بالنص بوصفه فعلاً لغوياً ثم بعملية فهمه وتذوقه وأخيراً تفاعلاته والمؤسسة الاجتماعية(٢) ، وتلازم هذه الدراسة الجانب الجمالي والجانب القبحي في التحليل الثقافي على الرغم من أصحاب مشروع النقد الثقافي يرون أن وظيفته تكمن في إبراز القبحيات داخل الأنساق المضمرة في النصوص بدلاً من التركيز على الشيفرات الجمالية ، إذ يرى الغذامي – على سبيل المثال – أن النقد الثقافي ((معني بنقد الأنساق الثقافية المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه. ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي ، وما هو كذلك سواء بسواء))(٣).

يستفيد هذا النقد من تأويل النصوص ، ودراسة الخلفية التاريخية ، ويفيد من الموقف الثقافي النقدي والتحليل المؤسساتي ، ويركز الناقد الثقافي على أنظمة الخطاب والإفصاح في النص فلا شيء خارجه.

كما يرى الغذامي أن الشعر العربي هو المخزن الخطر لهذه الأنساق ، وهو الجرثومة المستترة بالجماليات(٤) ، في حين يرى في موقع آخر(٥) مناقضاً نفسه أنه لابد أن يكون النص جميلاً ويستهلك بوصفه جميلاً بوصف الجمالية أخطر حيل الثقافة لتمرير أنساقها.

شعر ابن زيدون من وجهة نظر التحليل الثقافي :

إن الهدف المرتجى من هذا المنهج هو النظر إلى شعر ابن زيدون بعين الجمال من أجل استخراج القيم السامية والمآثر العظيمة والصياغات اللغوية حيوية التفاعل ، وإيحائية الدلالة ، وبعيدة العمق ممثلاً ، ذلك كله خلاصة جهد ابن زيدون في صراعه مع الزمان والمكان والإنسان.

وسيعمل البحث على تقديم تصور لنص ابن زيدون انطلاقاً من مقولات التحليل الثقافي وجمالياته ، وسيولي الأنساق الموجودة في البنى النصية أهمية بالغة للكشف عن تشكيلات هذه الأنساق ، ووظيفتها المؤسسة للمعاني والرموز والدلالات.

تحتوي قصيدة ابن زيدون في بنيتها العميقة أنساقاً مضمرة تتعلق بنظرته للوجود بكلية أضداده . وتأويل هذه الأنساق المضمرة من حيث هي مكونات ثقافية للمجتمع (عصر الطوائف) ، تحتاج إلى تأويل ثقافي عميق يبين طبيعة الموضوعات التي أنتجتها هذه الأنساق .

إن الأضداد المتصادمة ، والأنداد المتصارعة ، والاستعارات المتنافرة أصبحت لغة تحاكي حركية العلاقات المتشابكة في شعر ابن زيدون ، فما مدى فاعلية الأنساق الثقافية وما تشير إليه مشكلاتها المتغيرة على حدّ التآلف والتنافر ؟ إذ ان في شعر ابن زيدون معان غائرة خلف أشياء الأرض والسماء مكاناً ، والتاريخ القديم والجديد زماناً.

وربما نستطيع أن نزعم أن الشعرية تقوم على مبدأ الأنساق الثقافية المضمرة وصورتها مؤسسة على مبدأ الضدية وعلى مستوى الموضوع فيزداد التوتر والمسافة بين العلاقات الظاهرة والمضمرة من حيث هي علاقات رامزة(٦).

والأنساق الضدية الثقافية على مستوى من الشعرية في نص ابن زيدون . فقد وظف إمكاناته المعرفية والثقافية ؛ لتشكيل عوالم الصراع ، وإبرازها فنياً داخل العمل الشعري .

النسق الضدي في شع ابن زيدون :

لا نستطيع أن نقول إن كل موضوعة يثيرها الشاعر في نصه تمثل نسقاً ثقافياً ، وفي عوالم الضد داخل النص الشعري كمائن ثقافية ، وأبعاد معرفية ، إذ يمثل الضد بالنسبة للنص الشعري غاية في الأهمية ، فهو الذي يخلق الإصرار على الفهم العميق له والإدراك المتعدد لأبعاده ، ويدفع إلى الغوص على مكوناته القادرة على إنتاج فعل وعلاقات تنشأ بين هذه المكونات وبها يتحول النص – في الغالب – إلى نص وثاب قلق وصولاً إلى الكمال الإبداعي(٧) ، وانطلاقاً من مركزية النسق الضدي في الموضوع الشعري يتشكل :

أ-الفعل الإنساني في النص الشعري لابن زيدون:

وبما ان المجتمع الأندلسي يعيش حالة من الصراع ورغبة في تقويض (الآخر) مقابل إعلاء شأن (الأنا) ، لذا أخذ الشعراء يظهرون هذه الرغبة في أساليب شعرية كثيرة ومتنوعة ، وربما يكون هذا التضاد من خلال السلطة الحاكمة التي قربت فرداً على حساب فرد ، أو فرداً على حساب جماعة

. لذا فالنصوص الشعرية الأندلسية تضمر في عمقها أنساقاً ، تُعلى من شأن الجماعة ضد الواحد الفرد(٨).

تصنع الأنا في حياة ابن زيدون عالمها الخاص مقابل عالم الآخرين ، وهنا يتجلى الصراع لديه . إن له أسلوباً خاصاً في الإفصاح عن الأنا ، كما ان التقدير الزائد للذات عرضاً من أعراض النرجسية التي تمثل عاطفة عشق الذات أو الحب المتناهي للذات ، إذ يوجد انشغال بالغ بالذات وما يخصها(٩) ، وحين تطغى عاطفة عشق الذات على العقل يتحول الفخر بالذات إلى زهو بالغ بها ، يوهمها بتفردها وندرتها ، فتستلذ لذة التعالي على الآخرين ، إن نص ابن زيدون يتضمن أنساقاً مضمرة تعلي من شأن الأنا وثقافته ، وتجعل منها نسقاً مهيمناً ، إذ يقول(١٠) :

يــا أيُّهــا الملــكُ المعلّــى الأعظــمُ
أقطــع وريــديْ كُــل بــاغٍ ينْــئمُ
فاحســم بســيفكَ داء كــلِّ منــافق
يُبــدي الجميــلَ وضــدَّ ذلــك يكــتُمُ
لا تَحقــرنَّ مــن الكــلام قليلــهُ
إن الكــلامَ لــه سُــيوف تكلــمُ
فاللّــه يعلــم أنَّ كــلّ مؤمّــل
مثلــي علــى حــذر وخــوفٍ مــنهمُ
فالــدمعُ مــن أجفاننــا متهلِّــلٌ
والنّــار فــي أحشــائنا تتضــرَّمُ

لعل الصراع ينكشف الآن على أنه صراع بين عالمين ، عالم الجماعة الذي تحول إلى فرد وحاول الخلاص من الشر ، وعالم الفرد الذي تحول إلى جماعة وسيطر على الأمور ببغيه ونفاقه ، وبث الخوف والرهبة في صفوف الآخرين.

ومما يزيد الموقف تأزماً الضدُّ الذي يبرز في صنع الجماعة ، فالقولان (فالدمع من أجفاننا ... والنار في أحشائنا) يشيران إلى ثنائية الداخل والخارج ، فما هو ظاهر خوف وضعف (الدمع) ، وما هو خفي (في الأحشاء نار تضرم) ، ويظهر ابن زيدون ذاته ، وكأنه متعالياً على غيره من الناس ، فيرى أن العظماء – ويعدُّ نفسه منهم – هم الذين ينكبون ، امّا عوام الناس فلا يتعرضون للمصائب والنكبات ، إنَّ النكبة التي آلمت كالرياح العاصفة التي تعصف بالشجر الباسق ، وهي كالكسوف الذي

يحدث للشمس والقمر ، امّا النباتات الصغيرة القصيرة فتسلم من أذى الرياح العاصفة ، كما أنَّ النجوم الصغيرة لا يضرها خسوف أو كسوف[١١] :

هــل الرّيــاح بــنجم الأرضِ عاصــفةٌ
أم الكسوف بغيرِ الشَّــمسِ والقَمــرِ ؟

من خلال هذا البيت والأبيات السابقة ، نجد أنفسنا أمام نسقين :

النسقي الجمعي ويشمل ثقافة المجتمع ، والنسق الفردي ويتضمن رؤية الشاعر الذاتية للآخر.
ونجد أن النسق الفردي لدى ابن زيدون غير خاضع للنسق الجمعي ، إنّه يتمرد على النسق المضاد ، لتشكيل عالم الذات ، فيصبح النص الشعري ((في أسمى تجلياته محاولة للمعالجة مع الواقع بكيفية أو بأخرى ، إنه محاولة لتحقيق الانسجام عبر الانسجام الحاصل في الواقع المعيش. ولما كان هذا الواقع لا ينتمي إلى النص إلا من خلال شرطه اللغوي ، فإن الشاعر يعيد صياغة هذا الواقع انطلاقاً من التمرد عليه لإعادة بنائه بشكل جديد يبدو معه اللغة غريبة عن واقعها الأول ، واقع القول المؤتلف ، وفي غرابتها تتجلى معانقتها للواقع الثاني واقع القول المختلف))[١٢].

إذ يوضح هذا الصراع ، النظام القائم في التعامل مع الفرد من قبل المجتمع الأندلسي ، الذي يصدع العلاقات بين الأفراد ، ويُبهت كثيراً من جمالياتها ، كما يبين الخيبة التي يُمنى بها الفرد جراء النظام القسري الرافض له ، فالشاعر يفتخر بذاته أشعاراً لأفراد المجتمع بالقوة ، إذ بدأ بتضخيم ذاته ، مفتخراً بأنه صاحب خلق كبير وأفعال عظيمة[١٣] :

وإنّي لأولى الناس مــن قومهــا بهــا
وانــبهُهم ذكــراً وأرفعهـــم قـــدرا
وعندي مــا يُصــبي الحليمــة شــيِّباً
وينسي الفتاة الخــود عُــذرتها البكــرا
جمــــالٌ وآدابٌ وخلــــقٌ مُوطــــأٌ
ولفظٌ إذا ما شــئت أســمعك السـحرا

يأتي هذا التضخيم ثقافة يمحو الشاعر بوساطتها الرفض ، ويثبت من خلالها فحولته وجدارته بمحبوبته ((أنبههم ، أرفعهم ، وعندي ما يصبي ، وينسي الفتاة ، جمالٌ ، وآدابٌ ، خلق موطأ ، ولفظٌ

أسمعك السحرا)) ، وهكذا بدأ الفرد يظهر مقنعاً قادراً على الديمومة ؛ لأن في ديمومته تحقيقاً لقيمة ذاته ، وإشعاراً بأهميتها.

وهناك نسق آخر ، يمثل صورة من صور الصراع الإنساني مع العدو – على حد قوله – وهذا يتضاد مع رغبة الشاعر ولا ينسجم مع أحلامه التي يتطلع لتحقيقها. لذا شرع ابن زيدون لإظهار شجاعة المعتضد بن عباد ومقاومته لأعدائه ، قائلاً(١٤) :

هُو الملكُ الجعدُ ، الذي في ظلالهِ
تكفُّ صُروف الحادثات وتُصرفُ
يذلُّ لهُ الجبارُ خيفةَ بأسهِ
ويعنُو إليهِ الأبلجُ المُتعطْرفُ
حذارك إذْ تبغي عليهِ من الرّدى
ودُنكَ فاستوفِ المُنى حين تُنصفُ
ستعتامُهُمْ في البر والبحرِ بالتَّوى
كتائبُ تُزجى أو سَفائن تُجذفُ

لقد صور ابن زيدون ممدوحه ؛ بأنه ذلك الملك الشهم الشجاع المنقذ المحافظ على مصالح مجتمعه ، الذي تمكن من القضاء على الفتن وإخمادها ، كما صوّره بأنه ذلك البطل الذي تهابه الجبابرة وتخاف بطشه. وقد نجح الشاعر من خلال عباراته الموحية التي لا تخلو من المبالغة في تصوير مدى قوة ممدوحه ومقاومته لأعدائه. فضلاً عن وجوب الحذر من بطشه براً وبحراً ، كما أنَّ شجاعة المعتضد مطمح شخصي واجتماعي ، شكلت جزءاً مهماً وكبيراً من شخصيته التي حاول فيها ان يوسع من دائرة الصراع بعد أن صار صراعاً مع العدو الخارجي ، إذن هي أنساق قائمة على عوامل سياسية واجتماعية متمثلة برفض الشاعر ذلك وعدم قبوله بسيطرة الغريب على دولته ؛ لأنَّ ذلك ظلم لأبناء مجتمعه. وهكذا حفل شعر الشاعر بكثير من النصوص التي تُبرز الصراع مع السلطة ، التي كانت غايتها حماية ذاته بصرف النظر عن هموم الشعب وحياتهم. ولم يكن موقف الشعراء واحداً من تلك السلطة ، بل هناك من وقف يندد بجرائمهم ويكشف سوءاتهم ؛ لذا نرى ابن زيدون يضخم من ذاته فإضافة بروز الأنا المتعالية التي تبرهن على مواجهة الآخرين بالوفاء والثبات على المبدأ ، وسعة الصدر ، وعمق التجربة.

ب–صراع ابن زيدون مع المكان :

يرى باشلار أن المكان : ((يرتبط بالقيمة الجمالية التي يمتلكها ، والتي يمكن ان تكون فيه إيجابية – قيماً متخيلة سريعاً ما تصبح هي القيم السائدة))[١٥] إذ ان العلاقة التي تربط الشاعر بالمكان هي الذكريات والتأملات ، وعندما يشعر بأنّ هناك فاصلاً يفصله عن المكان يبدأ يتوسل له ويناجيه ؛ لأنّ ليس من السهل عليه أن يتخلى عن هذا المكان الذي يعني له أشياء كثيرة جداً ، كل ذلك ينعكس على ذات الإنسان ويصبح عنصراً شعرياً مؤرقاً ومحيّراً بالنسبة للشاعر والناقد معاً. ومادام الشعر الأندلسي جزءاً من هذا الشعر العربي ، فإنّ نظرة الشاعر الأندلسي للمكان لابد ستكون قريبة من ذلك ، إذ أصبح بالنسبة له باعثاً للقلق والحزن ؛ لاسيما انّه على ارتباط وثيق بتجربة عيشه.

ولا يفوتنا ما للأطلال من مكانة مقصودة من الشاعر التي يتمحور فيها الزمان والمكان ، فكانت الأطلال عند الشاعر تقليداً قالبياً للقصيدة القديمة والشعور بتوحد التجربة والمعاناة في آن واحد ، ففي الحقيقة لم تكن هناك أطلال لبقايا دياره وأهله ، وإنما يتخيل هذه البقايا في مخيلته فيحاكيها ، فهي بذلك : ((رموز مكانية لكنها ذات دلالة زمانية))[١٦] ، فابن زيدون يعيش حالة صراع مؤرقة مع المكان ، فهي علاقة انفصال واتصال في آن ، فالإنسان الذي يقيم تجربته في المكان ، يحوله إلى بقايا تسفي عليها الرياح إذا ما ارتحل عنه. مما يُظهر حركة مناوئة بينهما تشكل لحظة اغتراب وصراع ، كما في قوله[١٧]:

ومن يغترب عن الدار لم يزل يرى
مصارع مظلومٍ : مجراً ومسحبا
وتُدفنُ منه الصالحاتُ ، وإنْ يسئ
يكن ما أساءَ النار في رأس كبكبا

الشاعر حصر ذاته في دائرة الاغتراب التي حملت الانفصال عن الأخر ، ضمن ثنائية (أنا/الآخر) وقد صاحب هذا الانفصال حالة من التوتر بين الأجزاء المنفصلة ، وهو يأخذ طابع الانفصال عن النفس ، وينطوي على شعوره بانفصاله عن ذاته ضمن ثنائية (الشاعر/الذات) و(الذات/الموضوع) .

وضمن هذه الدائرة المغلقة يعيش الشاعر خائفاً من القادم ؛ لأنه لا يزال يواجه المهالك في شتى صورها ، وإذا أحسن أنكر الناس إحسانه ، وإذا أساء أعلنوا كل إعلان إساءته.

لقد عاش الشاعر ابن زيدون لحظات قاسية يعاني من الاغتراب ويشعر بالوحدة وتحيط به المخاوف وتنهال عليه النكبات ، فتذكر ليالي قرطبة فصرخ قائلاً[١٨]:

سقى الغيثُ أطلالَ الأحبّةِ بالحِمى
وحاكَ عليها ثوبَ وشٍ مُنمنما
واطلعَ فيها للأزاهيرِ أنجُما
فكم رَفَلَتْ فيها الخَرائدُ كالدُّمى إذ العيش غضٌّ والزَّمانُ غُلامُ

تتجسد في ذات الإنسان – في حالة الإحساس بالغربة هواجس الموت ومشاعر الانقطاع ، فالنص لوحة إبداعية جمالية لم يخرج فيها الشاعر عن المعاني التي أتى بها الشعراء العرب في الجاهلية في شعر الوقوف على الأطلال ، ومنها السلام عليها ... والدعاء بالسقيا لها ، والبكاء فيها(١٩) ، (سعى الغيث أطلال الأحبةِ) ، ومن خلال هذا التداخل بين الابعاد تجسد الحدث بعدما توحدت الذات بالموضوع ، لذا يحاول تأكيد وجوده عن طريق المكان – الأطلال الذي يحمل أبعاد التجربة الفنية ((المكان/الزمان/المرأة)) ، وبين ذكريات الماضي السعيد وحقيقة الحاضر المؤلم عاش ابن زيدون الغربة المكانية بلا أهل ولا وطن ، إذ ناجاهم على البعد بهذه الأبيات(٢٠):

هل تذكرون غريباً عادهُ شجنُ
– من ذكركم – وجفا أجفانّهُ الوسنُ ؟
يُخفى لواعجهُ والشَّوقُ يفضحُهُ
فقد تساوى – لديهِ – السِّرُّ والعلنُ
يا ويلتاهُ ، أيبقى في جوانحهِ
فُؤادُهُ ، وهو بالأطلالِ مُرتهنُ؟
وأرّق العينَ – والظّلّماءُ عاكفه –
ورقاءُ ، قد شفُها – إذ شفَّني – حزنُ
فبتُّ أشكو وتشكو فوق أيكتها
وباتَ يهفُو ارتياحاً بيننا الغُصنُ
يا هلْ أجالسنُ أقواماً أحبُّهم ؟
كُنَّا وكانوا – على عهدٍ – فقد ظَعنوا

يبدأ النص بتشكيل ثنائية أساسية هي (الأنا/الآخر) تسود بين طرفيها علاقة بعد (زماني/مكاني) ، في حين جاءت الذكرى بعد الاستفهام وبصيغة الجمع لتؤكد الحدث – الفراق – وعبر شبكة الامتداد الزمني والبعد المكاني رسم ذاته المعذبة المرتهنة بالطلل ((وهو بالأطلال مرتهن)) ، وتحت وطأة تلك التصورات النفسية القاسية لزمن الغربة يقف الشاعر أمام الأطلال من خلال ثنائية ((الحضور/الغياب)) ، ضمن ثنائية ((الحقيقة/الخيال)) فـــ((المخيلة المنتجة تفكك العالم كله ، إنها تجمع أجزائه وتنظمها وتخلق عالماً جديداً بمقتضى قوانين تبعث من أعمق أعماق النفس))(٢١).

إذن التحرك الزمني في هذا النص كان يسبح في فضاء الانفعالات الوجدانية والمعاناة النفسية التي جسدتها الذكرى.

استهل الشاعر أبياته بالاستفهام الذي ((يحتاج إلى جواب ، لكنه في الأبنية الفنية يستغني عن الجواب فيبقى مفتوحاً ليلقى في ذهن المتلقي شتى الإيحاءات))(٢٢) كذلك استعماله لحرف النداء الذي سبق الاستفهام ((يا)) والنداء – في البيت الأخير – هو احد الأساليب التي تسهم في تشكيل الخطاب الشعري فهو ((طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة))(٢٣) ، إذ اتخذها الشاعر – هنا – وسيلة لمحاورة الذات ومحاولة منه للخروج عن الحاضر بالحنين إلى سابق العهد ، وما ذلك الحنين إلا ((لعبة زمنية تمنح الفعل الشعري قابلية أكبر على الحركة والظهور ، وغالباً ما يتمظهر شعرياً عبر أسلوب سردي يروي حكاية تامة العناصر تقريباً ، تبرر نهوض نداء الماضي))(٢٤) ، وبين الاستفهام الذي استهل به النص ((هل تذكرون)) وبين الاستفهام المسبوق بحرف النداء ((الياء)) ((يا هل)) التي انتهى به النص عاش ابن زيدون في سهر دائم ((جفا أجفانه الوسنُ)) يتأرجح بين خفاء لوعته والشوق يقصمنه ، فقد تساوى عنده السر والعلن ، فأطلق صرخته التي ملئت الفضاء النص ((يا ويلتاه)) وهي ترسم لنا لوحة مأساوية لنفس ذائبة في ذكريات الماضي السعيد.

أما المكان المعادي ، فهو السجن الذي يحمل صورة العذاب والقهر والعقاب . وإن للسجن ((أثراً كبيراً في الضغط النفسي على عموم من دخله وأكثرهم تأثيراً الشعراء))(٢٥) ، لما لهم من حس مرهف وخيال خلاب ، إذ يثير المكان خوف الشعراء إذا حوّل حرياتهم قيداً ، وجعل حياتهم ظلاماً ، وبدل سعادتهم شقاءً دائماً. والسجن مثال جيد لتناول هذه الخصائص السالبة للمكان. فقد شكل أرقاً ومكاناً لتجارب إنسانية حزينة بالنسبة لبعض الشعراء ، ومنهم شاعرنا ابن زيدون الذي تركت هذه الأمور أثراً عميقاً في نفسه وجعلته يعيش الغربة الأبدية والشكوى المؤلمة لتوصيل خطراته الذاتية بنفحات حزينة باكية ، قائلاً(٢٦) :

ظعنتُ ، فانَ الحُرُّ يُجفَى فيظعنُ
وأصبحتُ أسلُو بالأسى حين أحزنُ
وقرَّ – على اليأسِ – الفؤادُ الموطَّنُ
وإنَّ بلاداً ، هُنتُ فيها لأهْونُ   ومن رامَ ملي بالدَّنيةِ أدْنأُ
ولا يُغبطُ الأعداءَ ، كوني في السَّجنِ
فإني رأيتُ الشّمسَ تُحضنُ بالدّجْنِ
وما كنتُ إلا الصّارمَ العضبَ في جَفْنِ
أو الليثَ في غاب،أو الصّقْرُ في وكْنِ   أو العلْقَ يُخفى في الصّوان ويُخبأُ

ما يلاحظ على النص ذلك الحزن العميق والعبرات المنكسرة التي تكاد تضيق بها النفس المغتربة ، التي تعاني القلق والحنين وفقدان الأهل والأحباب ؛ نتيجة الاستبداد والقهر تصاحبهما معاناة حادة وألم نفسي وروحي ((فالمغترب يعيش مع الناس لكنه غريب عنهم بخلواته إلى نفسه. وهو يبتعد فكرياً ونفسياً عن المجتمع))(٢٧) ، وكيف حال ابن زيدون ، وهو يعيش الغربة المكانية والزمانية معاً في ظلام السجن ، حال الشاعر أن يهيء ذهن المتلقي في المقطع الأول لمضمون الحدث – السجن – الذي أفصح عنه في المقطع الثاني ، وذلك من خلال استهلال النص بلفظة ((اظعنت)) التي تشير إلى الغربة المكانية ، ولكنه يبرر لنفسه ويخفف عنها وطأة الحدث ... ، ويستمر في وصف الحالة النفسية والحزن الذي يعصر قلبه واليأس الذي أخذ من الفؤاد موطناً لتتضح الصورة الشعرية وتتلون بلون مأساوي لأجل تفعيل ثقافة العين واقتراح فضاءات حسية وحدسية تتجاوز حدود الظاهر ((والوصف يتيح للأشياء أن تتموقع في فضاء اللغة متحققة باللغة وإذ يستبد النص فانه يتلذذ بهزيمة الزمن وخيبته العميقة ذلك لكي يؤسس من نسيج النص لشعرية التفاصيل))(٢٨) ، وقد وجدنا في النص ما يثلج القلب من صور إبداعية ، إذ نفي الفرح للأعداء الشامتين بسجنه وأثبته لنفسه من خلال الصورة الفنية داخل إطار المكان المغلق ((السجن)) ضمن ثنائية ((المطلق/الحر/المقيد(السجن))) ، والتي تسود بين طرفيها مجموعة ثنائيات أبرزها ((الفرح/الحزن)) ، وقد نفي ابن زيدون الفرح الذي تمسك به أعداءه معلناً ثبوته لذاته من خلال أروع الصور الفنية.

الأعداء → لا يغيط الأعداء ⇄ ((أنا)) في السجن
أنا ← رأيت الشمس تحضن بالدجن
أنا ← الصارم العضب في جفن

أنا ← الليث في غاب
أنا ← الصقر في وكن
أنا ← العلق في الصوان

وهذه الصورة أعطت للنص حركة سريعة إلى العالم المفتوح بعدما أحس الشاعر بضيق شديد من ألم الفراق وشدة المصائب وشماتة الأعداء ، وهو يعيش السجن وحيداً ، إذ كتب في أخريات أيام سجنه رسالته الجدية وأودعها ما أودعها من عتب وشكوى ورجاء(٢٩) ، ثم شفعها بقصيدة عتب قال فيها(٣٠) :

أيها المؤذني بظلم اللّيالي　　　ليس يومي بواحدٍ من ظلومِ
ما ترى البدر – إن تأملْتَ – والشَّمـ　　　س هما يُكسفان دونَ النّجومِ
وهو الدَّهرُ ليس ينفكُّ ينحو　　　بالمصاب العظيم نحو العظيمِ
بوأ اللهُ ((جَهْوراً)) أشرف السّو　　　دد في السُرو واللُّبابِ الصَّميمِ
واحدٌ سَلَّمَ الجميعُ له الأمـ　　　ـرَ ، فكان الخُصوصُ وفقَ العُمومِ
أيهذا الوزيرُ ها أنا أشكو　　　والعصا بدءُ قرعها للحليمِ
بأبي أنت!! إنْ تشأ تكُ بردا　　　وسلاماً كنار إبراهيمِ

تتحرك الأبيات داخل إطار الذات التي تعاني من ألم الاضطهاد والظلم ، والتي تعيش بين طرفي ثنائية ((الماضي/الحاضر)) ، وما بينهما من تناقض مرير . بالأمس كان وزيراً ذا مكانة عالية وهو من أقرب الناس للأمير واليوم في السجن يستعطفه ليخصله من محنة الزمان. وعلى الرغم من أن النص يحمل صورة الاستعطاف ظاهرياً ، لكنه يوحي بدلالات رمزية وخطاب خفي انه حديث الند للند ، وقد أشارت عبارة ((والعصا بدء قرعها للحليمِ)) ، لتؤكد ما ذهبنا إليه. والمعنى أيها الوزير لقد ضرعت إليك بالشكوى لأنبهك إلا ما وقع علي من ظلم وآمل أن تنتبه إليه فتزيله.

إذن تداخلت هذه المفاهيم فيما بينها لتخلق حالة من الضيق ربما تصل إلى درجة الاختناق ؛ بسبب هذا المكان غير الأليف ، ولكن يبقى الإبداع الفني سائداً فيها اي إن الشاعر لا يسجن الطاقة الإيحائية للمكان غير الأليف في تصوير الحدث الشعري وأغنائه ، لان رفض المكان لا يعني إلغاء القيمة الجمالية ، وفي هذا قال ابن زيدون(٣١) :

على ((الثَّغَبِ الشَهدي)) مني تحيةٌ ... زكتْ ، وعلى ((وادي العقيق)) سلامُ
ولازال نورٌ ((في الرُّصافةِ)) ضاحكٌ ... بأرجائها يبكي عليه غَمامُ
معاهد لهوٍ لم نزلْ في ظلالها ... تُدارُ علينا – للمجونِ – مُدامُ
زمان : رياضُ العيش خُضرٌ نواضرٌ ... ترقٌّ وأمواهُ الشرورِ جمامُ
فإن بانَ منَّي عهدُها ، فبلوعةِ ... يُشبُّ لها بين – الضلوعِ – ضرامُ

تشكلت في النص ثنائية((الإنسان/المكان)) بين طرفيها علاقة بعد زماني يشكل بدوره ثنائية ((الماضي/الحاضر)) ومنها تتولد ثنائية ((القرب/البعد))، ((الفرح//الحزن))، ((الضحك/البكاء)) تصحبها أماني في النفس المعذبة تريد عودة الماضي ، لانه يجمع بين ((أنا/الآخر)) على أرض الوطن الأم قرطبة.

هكذا بات المكان كفيلاً بإسعاد الشاعر ومشاركته الفرح ، فلا عجب أن يتمسك به ، وإن يسعى إلى المحافظة على مستوى علاقته به في إطار تعويض ومحاولة التواصل واستحضار الماضي السعيد ، فقد كان العثور على الانسجام مع مكان التجربة باختلاف خصائصه – الأطلال ، السجن – شاغلاً للشاعر ؛ لأنّ البحث عن موطن الراحة أمر يقلقه ويبعث فيه الخوف والاغتراب.

ج-صراع ابن زيدون مع الزمان :

اتخذ الزمن في النص الشعري نظاماً له حضوره في خيال الشاعر العربي ، ولاسيما إذا تعلق بموضوعات الحياة ، أو ما يقع فيها من صراعات ؛ بسبب ذلك رأى فيه الشعراء قوة تهدّد حياتهم وبقاءهم واستقرارهم. ولذا فإن استكناه الزمان وفهمه يأتيان من تناقضه مع دور الإنسان ، بوصفه عنصراً فاعلاً في حضوره ، ومؤثراً في حركته(٣٢) ، سنحاول في هذا المبحث أن نوضح صراع ابن زيدون مع الزمن ، متخذين من تأويل الأمثلة الشعرية وسيلة تبرز من خلالها ثقافة الإنسان في تعامله مع عناصر الزمن : صروف الدهر وولادة الحياة والشيب والموت ، فالشاعر ابن زيدون الذي عاش تناقضات الحياة وتقلباتها واختلاف موازينها تبلورت لديه فكرة اضطراب موازين الحياة واختلالها ، إذ وجد أن النوال في هذه الحياة لا يتناسب مع سعي الإنسان وجهده فيها ، وان الرجل الكريم هدفاً لسهام الباغين الحاقدين ، لأن الحياة لا تقوم على العدل والإنصاف بل ان كل شيء فيها متناقض ، قائلاً(٣٣) :

إنَّ الذي قدر الحوادث قدرها ... تساوى لديه الشّهد منها العلقمُ
ولقد نظرتُ فلا اغترابٌ تقتضي ... كدرَ المآل ولا توقّ يعصمُ
كم قاعدٍ يحضى فتعجبُ حالهُ ... من جاهدٍ يصل الدُّؤبَ فيحرمُ

يمثل الدهر عند ابن زيدون القوة التي ترتبط في خياله بثنائية الخير والشر ، فهو كما يؤنسه يخيفه وكما ينفعه يضرّه حتى صار ذا قدرة على تغيير حياته وتحويلها . وبات الإنسان أمامه ضعيفاً مسلوب الإرادة وغير قادر على الفعل. ولذا يرد الدهر والزمان في شعر ابن زيدون في صورتين أو نسقين : النسق الأول : يمثل الوجه الحسن فيه ، وتمثل بأيام الود والوصال واللقاء التي ينعم بها قبل محنته(٣٤) .

والنسق الآخر : يمثل الوجه القبيح – وهي الغالبة – وفيها الزمان يدّب متخفياً ليغدر(٣٥):

اعبَّاد يا أوفى الملوك ، لقد عدَا   عليكَ زمانٌ منْ سجيَّتهِ الغَدْرُ

أو ظالم مفرق لشمل الأحبة(٣٦) :

لعمركُمُ إنّ الزّمانَ ، الذي قَضَى   بشَتّ جميعِ الشّمل مِنَّا ، لمُشتطُّ

تنكر لهم وجار في حكمه عليهم ، بعد أن قضى عليهم بالحب وأسعدهم(٣٧) :

أما وزمان : مضى عهدُهُ   حميداً ، لقد جارَ لمَّا حكمْ
قضى بالصَّبابة ثُمَّ انقضى   وما أتَّصلَ الأُنسُ حتَّى انصرمْ

ويبيت الثأر للأكفاء لينال منهم(٣٨) :

أخصُّ لفَهْمي بالقِلى ، وكأنَّما   يبيت لذِي الفهم الزَّمانُ على ذَحلِ

فهو لا يفتأ يرمي العظماء من البشر بمصائبه وخطوبه العِظام(٣٩):

وَهُو الدَّهرُ ليس ينفكُّ ينحوُ   بالمُصابِ العظيمِ نحو العظيمِ

فقد شغف الدهر ، بأن يحول بين أصحاب النباهة وبين بلوغ غاياتهم ، التي يرومون تحقيقها(٤٠):

أهلُ النَّباهةِ أمثالي لدَهرهمُ   بقصرهم دُونَ غاياتِ المُنى وَلَعُ

فشيمة الدهر الإساءة والتقلب ، شأنه أن يرفع أقواماً ويضع آخرين ، لكن لا يأس في ذلك ، فقد يجرح الدهر ثم يداوي الجراح ، ففي قصيدته الفياضة بالألم واللوعة ، والتي تنبض بالحكمة من شر ما قاساه في السجن ، تبقى نفس الشاعر متعلقة بأبواب الرجاء والتفاؤل ، فهو يرى ان قسوة الدهر قد ينجم عنها الخير والنعيم كما يتفجر الماء الزلال من الصخر ، وقد يكون أكر يسراً وسهولة بعد جموحه وعصيانه الذي طال ، فكلما اشتدت الخطوب هانت(٤١):

مَا على ظنّي باسُ   يجرحُ الدَّهر وياسُو
رُبَّما أشرف بالمر   ءِ على الآمالِ ، ياسُ

**وكذا الدّهر إذا ما		عزَّ ناسٌ ، ذلَّ ناسُ**
**إنْ قسا الدّهرُ فللما		ءِ من الصّخر انبجاسُ**
**وعسى أن يسمحَ الدّهـ		رُ فقد طالَ الشّماسُ**

فراح يدعو إلى التحلي بالصبر أمام نوائب الدّهر ، لان الصبر جميل ، وهو من شيمة الأحرار وسلاح لابد منه للحزين ، أما طلباً للأجر والثواب الذي بشر الله تعالى به الصابرين.وأما بأساً ونهى عن صبر الجزع والقنوط الذي تكثر به ذنوب المرء وتحبط بسببه حسناته[٤٢] :

**هُو الدَّهرُ!! فاصبرْ للذَّي أحدثَ الدَّهرُ		فمنْ شيمِ الأبرار – في مثلي – الصّبرُ**
**ستَصبرُ صَبْرَ اليأسِ أو صَبر حسبةٍ		فلا ترضَ بالصِّبرِ الذي معهُ وِزْرُ**

يمثل هذان البيتان النفس الإنسانية المقهورة ، وهما مثال جميل للصراع الإنساني مع الدهر ، إذ نلحظ أنّ قدرة الدهر تضغط على الإنسان ، بيد أنّ أثرها يبدو عميقاً في حياته. لكنه ببصيرة الإنسان/الشاعر ، جعل من الصبر سلاحاً في مواجهة الدهر ؛ الذي سيصاب بانكسار شديد حال رؤيته للشاعر ، وهو يصمد ويجالد ، وإذا ما صمد أمام الموت أعظم قوة قاهرة له ، فإنه بطبيعة الحال سيهزم الدهر ويبعد حزنه في أية محنة أخرى.

يعمق الحزنُ الذي حلّ بالشاعر نتيجة موت الإنسان (أم أبي الوليد بن جهور) إحساسه بالمواجهة أكثر ، ويولّد وعيه بقوة الدهر وديمومة أثره ((هو الدهر)) فمع أنّ سلاح المواجهة حاضر إلا أنَّ الدهر القوي تقدم لغوياً ، لأن أحداً لا يستطيع ان يتقدم عليه. لتزداد بذلك حدة الصراع من سيطرة الدهر وتكرار ذكره. ومن انفعال الشاعر وإصراره على التحدي عندما رفض الصبر المتبوع بالوزر.

لقد شكل الدّهر في تصور ابن زيدون قوة خفية تتحكم في حياته وتسيطر على إرادته حتى أصبح سبباً في كل ما يعرض لحياته من شقاء ومعاناة.

أما الشيب والشباب ، فهما مرحلتان في حياة الإنسان ، اتسمت الأولى بطابع الضعف – على الأغلب – والأخرى بطابع القوة ، والإنسان بطبيعته يعشق القوة ، فتراه يحاول المستحيل للإبقاء على شرخ الشباب ودفقاته ، ومن ثم إبقاء قوته ، فمرحلة الشباب تعدُّ منطلق القوة والفتوة والنشاط والأمل ، وتمثل ربيع الحياة الزاخر ، والزاهي بالأماني الحافل بأنواع المتع والملذات ، لذلك عاش الشاعر من عقد نفسية أقضّت مضاجعه ، فهو حينما يذكر الشيب لا يبك صباه ، بل يبكي ذات الحياة التي – لا محالة – سيفارقه ، هكذا سيطر هذا التفكير على ثقافته منذ القدم وسلب راحته وقرّب إليه النهاية. والشيب في الشعر الأندلسي عموماً ، لا يخرج عن كونه انفعالاً من انفعالات الشاعر بتحول الحياة ،

وعجز الإنسان فيها ((فخير الحياة ما كان فيها المرء قوياً يتدفق حيوية ونشاطاً ، وقادراً يطوي الأرض سعياً لتحقيق غاياته المتنوعة التي لا تنتهي))(٤٣).

فقد ظهر ابن زيدون ((في إحدى مدائحه شاكياً الآلام والأشجان التي ارتسمت على وجهه وبدت للعيان ، وصارت تخبر عن حاله حتى وخط الشيب عارضيه ، وهو لا يزال شاباً غضاً لم يبلغ الثلاثين من عمره ، ثم أخذ يسوق تعليلاً طريفاً بسبب ذلك مؤكداً من خلاله أن الذي أصاب رأسه مبكراً بالمشيب ، هو اشتعال نيران الأسى في صدره وتطاير شررها ؛ نتيجة تراكم رزايا الدّهر عليه ونيلها منه))(٤٤).

قائلاً(٤٥) :

لم تطوِ بُردَ شبابي كبرةٌ وأرى   برقَ المشيب اعتلى في عارضِ
قبل الثلاثين ، إذ عهدُ الصِّبا كثبٌ   وللشَّبيبة غُصنٌ غير مُهتصرِ
ها إنَّها لوعةٌ في الصدرِ قادحةٌ   نار الأسىَ ، ومشيبي طائرُ الشّررِ

لقد ارتبطت صورة الشيب في ذهن الإنسان العربي بالهلع والخوف ، وما يشي بهذا التصور ان الشاعر يتحدث عن زمنين هما : الشباب/ماضٍ ، والشيب/حاضر ولا يقاوم أحدهما إلا بالآخر ، لكنه يتطير من الشيب بعده مضرماً لنار الأسى وطائراً للشرر ، وهذا في حدّ ذاته تضمين لخوف الشاعر وقلقه من الشيب في عارض شعره وسنة صغيرة.

إن ظهور الشيب بالنسبة لابن زيدون شكل من أشكال الفجيعة العظيمة ، ناتج عن همٍّ كبير وهو السجن ، الشيء الذي جعل مأساة الشاعر مركبة مركزها الشيب ، وهذه المركزية تعطي إرادة قوية للشيب مقابل تهميش الإنسان الذي أخذ يضعف ويتنازل عن سلطته(٤٦) ، ولهذا نرى ابن زيدون يظهر علة من اصابة من بياض الشعر والمشيب(٤٧) :

هَرمتُ ، ومَا للشّيبِ وَخْطٌ بمفرقي ،   وكائنْ لشيب الهَمّ في كبدي وخطُ

إذ يشير ابن زيدون إلى علة مشيبه لا لهرم أو كبر ، بل لكثرة الهموم ، وللمبالغة في شدة الحزن والهم ، الذي يعاني منه ، فاشتغل الجانب الاستعاري فجعل للهم شيباً عبر تجسيم الهم ، وكان لحسن التعليل أثر في تحسين الصورة ، فضلاً عن تكرار لفظة ((الشيب وللشيب)) والتصدير بين ((وخط)) الذي جاء في حشو الشطر الأول ونهاية الشطر الثاني ، مما جعل المتلقي يتردد بين اللفظتين على مساحة مكانية ليست ببعيدة ، مما أضفى إيقاعاً نغمياً على البيت. أما ذكر المرأة في شعر ابن زيدون مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالزمن ، فبحضورها يطيب الزمن ويحسن ، ورضاها يمثل شيئاً نفيساً لا يقدر بثمن ، إذ يقول(٤٨) :

امّا رضاكَ ، فعلقٌ مالهُ ثَمنُ ،   لو كان سامحني في وَصْله ، الزّمنُ
تبكي فِراقكَ عَينٌ ، أنتَ ناظرها   قد لجّ في هَجرها عن هجركَ الوسنُ
إنّ الزّمانَ الذي عَهدي به حسنٌ ،   قد حالَ مذ غابَ عني وجُهكَ الحسنُ
أنتَ الحياةُ ، فإنْ يُقَدرْ فراقُكَ لي   فليُحضر القبرُ ، أو فليُحضرِ الكفنُ

وهذه المرأة متقلبة تقلب الزمن ، تميل معه اني يميل ، فيقول(٤٩) :

عذيري منْ خَليلٍ يستميلُ ،   يميل ، معَ الزّمانِ ، كما يميلُ
ويرضى أنْ تَضيعَ سُدىً حُقُوقي ،   وبَاعي في الهَوَى ، باعٌ طويلُ
أشمساً اشرقتْ من بعد شَمْسٍ!   أما لك في شوى قلبي أفُولُ؟
أما يُمحى عتابُكَ كل يومٍ؟   أما يرجى – إلى وصلٍ – وصولُ؟
ولو أجدُ السّبيلَ لطرتُ وجداً ،   ولكنْ ما إلى هذا سبيلُ
كتابي ، عَنْ ودادكَ ، لا يزول ،   وعَهْدي ، مل عهدك ، لا يحولُ

يقر الشاعر ان له باعاً طويلاً في العشق ، مع ذلك ، فقد ضاعت حقوقه ، وهجرته حبيبته ولم يحظ بوصلها ، لانها عاتبة عليه ، لذلك تراه يلجأ إلى مجموعة استفهامات متضمنة معانٍ منها التعجب التمني والترجي ، فضلاً عن الجناسات والتكرارات التي أضفت إيقاعاً نغمياً يقوي دلالة الوجد الذي بات يؤرقه ، لهذا نراه يساومه أن يأخذ يوماً من حياته مقابل ساعة وصل ، لينال حظه من القرب ان لم يكن شفاعة ، قائلاً(٥٠) :

باللهِ خُذْ مِنْ حياتي   يوماً ، وَصلْنَي سَاعَهْ
كَيْمَا أنَالَ بعَرضٍ   مَا لم أنَلْ بشَفَاعَهْ

فحياته مرهونة بها ، لانها أضحت البلسم الذي يداويه من كل داء ، وهو في هذا كله ينسب إلى المرأة قدرات خارقة وخارجة عن مألوف البشر الاعتياديين ، وكأنها ليست من البشر ، فهي وحدها القادرة على إحيائه وأماتته ، فيقول(٥١) :

خُنْتَ عهدي ، ولمْ أخُنْ ؛   بعتَ وُدّي بلا ثَمنْ
قائلاً : هَلْ مُزايدٌ   رابحاً ؟ ثُمّ مَنْ يَزنْ ؟
عُدّتي كُنْتَ للزّما   نِ ، فقد حُلْتَ والزّمنْ

لقد كان ابن زيدون وفياً لحبيبته وظل على عهده لها ، لكنها خانته وخذلته ، ولم تحفظ عهده ، فطالما أدخرها عدّه له ضد الزمن ، فكان ان وقفت مع الزمن ضده.

أما قضية الموت ، فقد عرفت على مرّ الأجيال ، وفي كل أنواع الحضارات الإنسانية وكانت قضية مجابهة الموت هي القضية الأساسية للوجود ، فهي أخطر ظاهرة في الحياة وقف البشر أمامها حائراً مذهولاً ، محاولاً حل لغزها ومعرفة حقيقتها وكنهها ، فهي لغز مجهول غامض لا نعرف عنه شيئاً(٥٢) ، إذ وقف ابن زيدون عاجزاً أمام سلطان الموت ، حائراً في تفكيره ، على الرغم مما يمتلكه الشاعر من خزين فكري وثقافي وديني وتجربة حياتيه ، وحاول ان يكشف شيئاً من حقيقته ، باحثاً عن المعادل الموضوعي لما يشغل تفكيره ، فهو يعيش حالة صراع فكري أبدي وجودي يتمثل بحقيقة لا يمكن إنكارها ، وهي ان الموت لا يسلم منه أحد ينسل متخفياً لا يدفعه الحزن أو مهارة الطبيب ، قائلاً(٥٣) :

إنّما يُكسبُنا الحُزْ   نُ عناءً ، لا غَناءَ
أنتَ طبٌّ أنّ دَاء المَوْ   تِ قدْ أعْيا الدّوَاءَ
فتأسَّ إنّ ذاكَ   الخطْبَ غَالَ الأنبياءَ
وَسَيَفْنِي المَلأُ الأعْـ   ـلَى إذا مَا الله شَاءَ

وهو أقوى القوى لا يستطيع أن يقف أمامه صامداً ، ولا ينفع معه شيء ، ففي قصيدته التي رثى بها الملك المعتضد بن عباد (ت٤٦١هـ) رأى ابن زيدون ان الموت الذي أصاب الملك لم تستطع أن تدفعه جلائل أعماله ، ولا جيشه العظيم وعطاياه وهداياه الكثيرة(٥٤) :

غُشيتَ!! فلم تغشَ الطّراد سوابحٌ   وَلاَ جُرِدِّتْ بيضٌ ، ولا أشرعتْ سُمْرُ
ولا شنتِ المحذوُرُ عنك جلالةٌ   ولا عَدَدٌ ، دثرٌ ، ولا نائلٌ غَمْرُ

فقد عد ابن زيدون الموت المصبية أو الواقع الذي لا مفر منه ، لأنه كأس لابد أن يشرب منه الجميع ، لذا لم تكن أفكاره الفلسفية تحمل تصوراً سوداوياً تجاه الموت ، فهو يؤمن ان لكل إنسان أياماً معدودات في هذه الحياة مهما طالت مدّة عيشه فيناله تيار الموت ويجرفه ، ثم يمضي فهو نهاية كل حي(٥٥) :

ولئن أذالكَ – بعد طوّلِ صيانة –   قدرٌ ، فكلُّ مصونةٍ ستذالُ

فالمصيبة ليست أن يموت الإنسان ، ولكن أن يحزن ويجزع عليه الآخرون ويفقدوا إيمانهم بقضاء الله وحتمية الموت وأحقيته . فيفقدوا بذلك ثوب الصبر(٥٦) :

وَمَا الرُّزءُ في أن يُودَعَ التربَ هالكٌ

بل الرَّزْءُ كلُّ الرُّزءِ أن يهلــك الأجــرُ

إذن للموت وقعٌ في نفس شاعرنا ابن زيدون ، فقد وقف عنده متأملاً كما تأمل الحياة ، بل قد يكون للموت حيزاً أكبر في أشعاره وتأمل أعمق في فلسفته ، لأن جهل الأشياء وغموضها يدفع الإنسان إلى محاولة حل لغزها وكشف أسرارها.

الخاتمة

تأكد لنا ان النصوص الشعرية لابن زيدون تتمتع بمراوغة عالية وحركية وانفتاح ، يمكن من خلالها البحث عن أنساق مضمرة ، لاسيما فيما يتعلق بالضد/الصراع ، إذ رأينا الصراع الإنساني وصراع الإنسان مع المكان والزمان ، وفعل هذه الصراعات التي أنتجت حالة سلبية من خوف الإنسان وقلقه وحزنه من تحقيق حياة هادئة ومستقرة ، ومحاولة هذا الإنسان المحافظة على القيم الإنسانية العالية التي كان يصبو إليها ، كما ان هذا الصراع أو التنافر الضدي منح النص الشعري قيمة جمالية وفنية ودلالات تدفع القارئ نحو تفسيرها وإزالة غموضها ، كل هذه التجليات الموضوعاتية للأنساق الضدية حفزت المتلقي على اكتشاف الأبعاد الوظيفية لهذه الأنساق ، بوصف هذا المتلقي قارئاً ثقافياً آخر يساهم ويشارك سواء أكانت هذه الأنساق المضمرة جميلة أم قبيحة ، إذ ان الإبداع الشعري يعدُّ واحداً من المتغيرات الفاعلة والمهمة في المجتمع.

الهوامش :

١- ينظر : جماليات التحليل الثقافي (الشعر الجاهلي نموذجاً) ، د. يوسف عليمات : ١٧.

٢- ينظر : التلقي والسياقات الثقافية ، (بحث في تأويل الظاهرة الأدبية) ، عبد الله إبراهيم : ١٣.

٣- النقد الثقافي ، د. عبد الله الغذامي : ٨٣.

٤- المصدر نفسه : ٨٧.

٥- ينظر : المصدر نفسه : ٨٣.

٦- ينظر : الثنائيات الضدية ، دراسات في الشعر العربي ، د. سميرة الديوب : ١٤٩.

٧- ينظر : جماليات النقد الثقافي (نحو رؤية للأنساق الثقافية في الشعر الأندلسي) ، أحمد جمال المرازيق : ٢٠.

٨- ينظر : المصدر نفسه : ٣١.

٩- ينظر : علم النفس المعاصر ، د. حلمي المليجي : ١٩٢ ، ونقد الشعر في المنظور النفسي ، د. ريكان إبراهيم : ١٢٣.

١٠- ديوان ابن زيدون ورسائله ، شرح وتحقيق : علي عبد العظيم : ٣٠٦.

١١- المصدر نفسه : ١٤٩.

١٢- الثنائيات الضدية ، دراسات في الشعر العربي : ١٥١.

١٣- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنتريني ، القسم الأول ، المجلد الأول : ٥٦.

١٤- ديوان ابن زيدون ورسائله : ٤٨٦-٤٨٧.

١٥- جماليات المكان ، غاستون باشلار ، ترجمة : غالب هلسا : ٣٧.

١٦- نقد الشعر في المنظور النفسي : ٩٠.

١٧- ديوان ابن زيدون ورسائله : ٧٠.

١٨- المصدر نفسه : ١٢٨.

١٩- ينظر : الموازنة ، الآمدي ، تحليل ودراسة ، قاسم مومني : ٤٠٥/١.

٢٠- ديوان ابن زيدون ورسائله : ١٩٠.

٢١- ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحديث ، عبد الغفار مكاوي : ٩٧/١.

٢٢- البناء الفني في شعر الحب العذري ، د. سناء البياتي : ٤١.

٢٣- علم المعاني ، محمد جيجان الدليمي وقيس الاوسي وحذام الالوسي : ١٢٥.

٢٤- المتخيل الشعري ، أساليب التشكيل ودلالة الرؤية في الشعر العراقي الحديث ، د. محمد صابر عبيد : ١٢٥.

٢٥- أدباء السجون ، عبد العزيز الحلفي : ١١.

٢٦- ديوان ابن زيدون ورسائله : ١٦٠.

٢٧- الاغتراب في تراث صوفية الإسلام ، د. عبد القادر موسى المحمدي : ٦٧.

٢٨- شعرية المكان في الرواية الجديدة ، خالد حسين حسن : ١٣٠.

٢٩- ديوان ابن زيدون ورسائله : ٣٥٩.

٣٠- المصدر نفسه : ٣٥٩.

٣١- المصدر نفسه : ٢٧٤.

٣٢- ينظر : جماليات النقد الثقافي (نحو رؤية للأنساق الثقافية في الشعر الأندلسي) : ١٠٣.

٣٣- ديوان ابن زيدون ورسائله : ٣١٢-٣١٣.

٣٤- المصدر نفسه : ١٣٣-٢٣١ ، وينظر : ٤٠٨ و ٥٠٣.

٣٥- المصدر نفسه : ٥٦٤.

٣٦- المصدر نفسه : ٢٨٥.

٣٧- المصدر نفسه : ٤٠٨.

٣٨- المصدر نفسه : ٢٠٣.

٣٩- المصدر نفسه : ٢٩٧.

٤٠- المصدر نفسه : ٢٩٧.

٤١- المصدر نفسه : ٢٧٣-٢٧٧.

٤٢- المصدر نفسه : ٥٣٩.

٤٣- الشيب في الشعر الأندلسي ، محمد العمري ، مجلة الدراسات الشرقية ، العدد السابع ، ١٩٨٨ : ٧.

٤٤- قصيدة المديح في الأندلس – قضاياها الموضوعية والفنية – (عصر الطوائف) ، أشرف محمود نجا : ١٦٠.

٤٥- ديوان ابن زيدون ورسائله : ٢٥٣-٢٥٤.

٤٦- ينظر : جماليات النقد الثقافي (نحو رؤية للأنساق الثقافية في الشعر الأندلسي) : ١٣٦.

٤٧- ديوان ابن زيدون ورسائله : ١٨٠.

٤٨- المصدر نفسه : ١٨٠.

٤٩- المصدر نفسه : ١٥١.

٥٠- المصدر نفسه : ١٨٦.

٥١- المصدر نفسه : ١٩١.

٥٢- ينظر : مع شعراء الأندلس والمتنبي (سير ودراسات) ، اميليو غرسيه غومس ، نقله إلى العربية الطاهر أحمد مكي : ٢٥.

٥٣- ديوان ابن زيدون ورسائله : ٥٧ ، وينظر : ٣٧.

٥٤- المصدر نفسه : ٥٦٤.

٥٥- المصدر نفسه : ٥٣٧ ، وينظر : ٥٢٧ ، ٥٤٠ .

٥٦- المصدر نفسه : ٥٤٠.

المصادر والمراجع :

١- أدباء السجون ، عبد العزيز الحلفي ، دار الكتاب العربي ، (د.ت) .

٢- الاغتراب في تراث صوفية الإسلام ، د. عبد القادر موسى المحمدي ، بيت الحكمة ، بغداد ، ط١ ، ٢٠٠١م.

٣- التلقي والسياقات الثقافية ، (بحث في تأويل الظاهرة الأدبية) ، عبد الله إبراهيم ، كتاب الرياض ، مؤسسة اليمامة الصحفية ، العدد ٩٣ ، سنة ٢٠٠١م.

٤- ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحديث ، عبد الغفار مكاوي الهيئة المصرية العام للكتاب ، القاهرة ، ج١ ، ١٩٧٢م.

٥- الثنائيات الضدية (دراسات في الشعر العربي) ، د. سميرة الديوب ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ٢٠٠٩م.

٦- جماليات النقد الثقافي (نحو رؤية للأنساق الثقافية في الشعر الأندلسي) ، أحمد جمال المرازيق ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط١ ، ٢٠٠٩م.

٧- جماليات التحليل الثقافي (الشعر الجاهلي نموذجاً) ، د. يوسف عليمات ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، عمان ، ط١ ، ٢٠٠٤م.

٨- ديوان ابن زيدون ورسائله ، شرح وتحقيق : علي عبد العظيم ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، (د.ت) .

٩- الذخيرة : أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، القسم الأول ، الجزء الأول ، ١٩٣٩-١٩٤٢م.

١٠- شعرية المكان في الرواية الجديدة، خالد حسين حسن، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ١٤٢١هـ.

١١- الشيب في الشعر الأندلسي ، محمد العمري ، مجلة الدراسات الشرقية ، العدد السابع ، ١٩٨٨م.

١٢- علم المعاني ، محمد جيجان الدليمي وقيس الاوسي وحذام الالوسي ، جامعة بغداد ، ١٩٩٣م.

١٣- علم النفس المعاصر ، د. حلمي المليجي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط٨ ، ٢٠٠٨م.

١٤-قصيدة المديح في الأندلس – قضاياها الموضوعية والفنية – (عصر الطوائف) ، أشرف محمود نجا ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، الاسكندرية ، ط١ ، ٢٠٠٣م.

١٥-لسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي (ت٧١١هـ) ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت).

١٦-المتخيل الشعري ، أساليب التشكيل ودلالة الرؤية في الشعر العراقي الحديث ، د. محمد صابر عبيد ، (د.ت) .

١٧-مع شعراء الأندلس والمتنبي (سير ودراسات) ، اميليو غرسيه غومس ، نقله إلى العربية ، د. الطاهر أحمد مكي ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٤م.

١٨-الموازنة، الآمدي، تحليل ودراسة: قاسم مومني،دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق،(د.ت).

١٩-النقد الثقافي ((قراءة في الأنساق الثقافية)) ، د. عبد الله الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ٢٠٠١م.

٢٠-نقد الشعر في المنظور النفسي، د. ريكان إبراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد، ط١،١٩٨٩م.

Abstract

(Bard Iben Zeddon Staylst)

Inthesurh the present is read text barly AL Andlosee poseple homer buteful from tuke text plut brdly in the language unddiscovey about the allocting since butiful and worles in the bornsee because laest bard AL Andlose tuke in behind but the found homur all engiyde thtsolve frome gousahvc about place past in live he need but point and worfs and fond sinolp and lurgey cieycle if opend buot stuiply him self stuyle in the wealk and opend because text and in the buat .

☐عمــادة
☐كليــــــة الآداب
☐للمراسلات والمعلومات
☐جامعة القادسية / كلية الآداب
☐الديوانية – العراق
ص.ب : ١٨١١